(٢٠)
النهايــة

وكان ما حدث بعد نزول ياسين ذاهبا إلى أحلام بنصف ساعة أنْ جاء بدر إلى وعد .. دقَّ جرس الباب .. فتحتْ هايدي الباب .. دلف بدر إلى الداخل يلبس ثيابا أنيقة غاية في الجمال .. تبادل مع هايدي ابتسامة صامتة كسلام .. كانت وعد تقف على بعد أمتار منه تحمل باقة زهور كانت تنقلها مِن مكانٍ لمكان آخر رأتْ أنها ستكون أجمل فيه .

وكانت المرة الأولى التي يرى فيها بدر وعد أم هايدي وأمه .. اثنان وعشرون عاما لم تتلامس يد أم وابنها وهما على بعد ساعة أو أقل بالسيارة ، في حين أنَّ هناك أماً أخرى وابنها في نفس الوقت أوشكا أنْ يتلامسا لمسا محرَّما دون أنْ يعلما .

اتجهتْ وعد ناحية ابنها بدر وبيديها باقة الزهور .. نسيتْ أنْ تضعها في مكانها الجديد .. جرفها الشوق لأنْ تحتضنه .. ناولتْ الزهور لهايدي .. احتضنته بكل أشواق السنين .. انتابه هو الآخر إحساسٌ جميلٌ وهو بين ذراعيها .. سالت الدموع مِن الجميع .. قالت له :

- أهلا بك يا حبيبي .. نوَّرتَ البيت
- شكرا يا ماما

كادت تقع على الأرض مِن وقع هذه الحروف الأربعة على قلبها الأموي الذي راح ينبعث مِن جديد .. آه يا ربي!! .. ماذا فعلتِ بنفسكِ يا وعد كل هذه السنين؟ .. فلتذهبْ أموال الدنيا إلى الجحيم لتغلب كفة هذه الحروف الأربعة .. آه لو وُلِدَ كلُّ جنين مِن بطن أمه ناطقا بكلمة (ماما) .. إذن لما وجدنا لقيطا يُرْمَى على أرصفة

المساجد وقارعة الطرق ، وما وجدنا أما قاسية القلب تُهْمِل طفلا لها عند خادمة تربيه لها ، وما وجدنا شيطانة كالغجرية وعد تلك تضحي باثنين وعشرين عاما ضائعة مِن عمر ابنها بعيدا عنها مقابل أموال تذهب وتجيء .

جلس الابن للطعام بين أمه التي يظنها حماة له وأخته التي جاء يخطبها مِن أمها ، وتسابقتْ إليه يدان بأشهى الطعام .. كان يميل أكثر نحو يد الأم ، ولاحظتْ هايدي الميل الجارف مِن أمها ناحية خطيبها ، لا تعلم أنه ميل أم لابنها العائد مِن غربة السنين ، وسألته وعد عن المرأة التي آوته بعدد نفس السنين :

- ما أخبار المهندسة أحلام؟

- بخير يا ماما .. تتمنى أنْ تراكِ

- وأنا أيضا

قالت هايدي :

- الله الله .. كأني غير موجودة

فابتسم بدر قائلا لوعد :

- كنتُ أتمنى هذا اليوم منذ زمن .. هايدي حدثتني كثيرا عن حضرتك وعن كفاحك ونجاحك

نظرتْ وعد ناحية هايدي وابتسمتْ قائلة :

- الدور عليكما لتكملا رحلة حياتنا .. لقد كبرنا وهرمنا

نظر لها بدر ثم قال :

- بالعكس .. حضرتك ما شاء الله تبدين شابة

ضحكتْ وعد وقالت :

- شكرا يا حبيبي

وقالت هايدي تمازحهما :

- هل يروق لكما أنْ أنصرف؟ .. لماذا لا أسمع منكَ هذا الكلام الجميل يا أستاذ؟

وبعد الطعام أخذتْ هايدي بدر مِن يده إلى الشرفة التي تطل على حديقة كبيرة جميلة .. جلسا يتحدثان ويضحكان كثيرا ، ثم ذهبتْ لهما وعد بالشاي والحلوى .. وقف بدر ، وقرَّب لها مقعدا لتجلس .. جلستْ فأخبرها أنه يريد أنْ يخطب هايدي رسميا .. اضطربتْ وعد ، ولم تعرف بأية كلمة تجيب في هذه اللحظة فلاذت بالصمت ، ثم أخبرها أنه يريد أنْ يكون الزواج بعد أربعة أشهر ، خلالها يمكنه أنْ يجلب لها أثاث عشهما الثري مِن أوربا فلاذت وعد بالصمت أيضا ولم تعقب .. سألها بدر عن سبب صمتها ، فاستأذنته دون رد .. ذهبتْ هايدي خلفها مندهشة مِن حالة أمها .. سألتها :

- ماما .. ماذا بك؟
- لا شيء يا هايدي .. فقط أشعر بالسعادة
- لكن هذا لا يبدو يا ماما

وسكتتْ وعد فنظرتْ لها هايدي بقلق ، فقالت وعد تراوغها :

- كان يجب أنْ تأتي معه والدته يا هايدي .. هذا ما أسكتني وجعلني لا أعطيه كلمة
- المرة القادمة ستأتي والدته .. سأخبره بذلك
- إذن عودي إليه يا هايدي .. لا تتركيه يجلس وحده
- وأنتِ يا ماما .. ألن تأتي؟
- اذهبي وسآتي خلفك

وعادت هايدي إلى بدر في الشرفة الواسعة ، ثم دقَّ رنين هاتف وعد .. ردتْ سريعا ، فإذا بمَن يخبرها أنَّ أمها ألطاف قد ماتت ، فاتجهتْ وعد إلى الشرفة ، وأخبرتْ هايدي وبدر وهي تتظاهر بالتأثر والحزن ، فاتصلتْ هايدي بياسين تخبره وتطلب منه أنْ يعود سريعا للذهاب معهما للعزاء .

وأراد بدر أنْ يصطحبهما إلى العزاء ، بل إنه أمسك بهاتفه واتصل بسائقه مسعود الذي كان ينتظره بالأسفل .. طلب مِن مسعود أنْ يعود بالسيارة إلى الزمالك وحده ، وسمعته وعد فرفضتْ ذهابه معهما ، وتحجَّجتْ بأنَّ الطريق طويل ، وأنها قد تبيت هناك .

وبعد واجبات العزاء بيومَيْن اتصلتْ وعد بالشيطان يعقوب الأصفر كي يقابلها في المكان المعهود .. جاء فسألته أول شيء عن زوجها الدكتور مالك الأمير ، فأخبرها أنه بخير ، وسألته إنْ كان هناك شيء يعرفه أكثر مما تعرفه في مهمته الجديدة لمراقبة الجميع خاصة مدحت ونرمين وندى ، فأخبرها بأنه قد رصد مقابلات متكررة تجمع أحلام وياسين ، أما هايدي وبدر فإنهما يتقابلان بين وقت وآخر في أماكن بين الناس ، وهناك زياراتٌ دائمةٌ مِن مدحت ونرمين وندى إلى فيلا الثراء .. قالت ليعقوب :

- شكرا لكَ يا يعقوب .. إني أتعبتكَ كثيرا معي

فابتسم قائلا :

- كل شيء بثمنه يا معلمتي
- هل قصرتُ معكَ في شيء مِن قبل يا يعقوب؟
- صراحة لا

- يعقوب .. فعلا ياسين وأحلام لا بد أنْ يتزوجا سريعا .. لكن فَكِّر معي كيف أتراجع عن زواج بدروهايدي دون أنْ أخسر شيئا

فأسرع غاضبا يقول :

- ألن تتوقفي عن هذا التردد؟
- لا أريد أنْ يتزوج ابني مِن ابنتي يا يعقوب
- لكن التراجع عن ذلك خطر على الجميع
- فليحدث ما يحدث
- معلمتي
- نعم
- ألم يتزوج كل مِن قابيل وهابيل أختيهما؟
- بلى سمعتُ عن ذلك
- معلمتي
- نعم يا يعقوب
- استمري .. الدنيا كلها ستكون بين يديك ويدي ابنك وابنتك .. لقد علمتُ مِن مراقبتي لهؤلاء الناس أنهم أثرياء جدا .. عندهم أموال لا حصر لها
- هؤلاء الناس هم بدر ابني يا يعقوب .. هذا يكفيني
- وأحلام؟ .. ماذا لو علمتْ بما فعلته بها؟
- ماذا يمكنها أنْ تفعل يا يعقوب؟
- سيكون انتقامها شديدا قد يصل إلى قتلك أو قتل كل أحبائك .. فما فعلتِه بها على مدى سنوات ليس هينا أبدا
- وماذا أيضا؟

- ستأخذ ياسين وتطرد بدر.. ثم تخيَّلي ما قد يفعله ياسين بكِ وبهايدي وببدر لو تناثرتْ الحقيقة

- سأطلب مِن بدر ألا يخبر أحلام أو ياسين بشيء .. أنسيتَ أنه ابني؟

- أساسا قد لا يصدقك بدر.. وقد يحبسك هو أيضا

- معقولة!! .. هل هناك ابن يحبس أمه؟

فضحك يعقوب ضحكة ساخرة وقال :

- وهل هناك أم تحرم ابنها منها لما يزيد على عشرين سنة؟

- لا تقل أي كلام يا يعقوب .. لقد فعلتُ ذلك مِن أجله

- صدقيني لن يصدق بدر بسهولة .. ففكري جيدا

فسكتتْ قليلا ثم قالت :

- إذن يمكنني أنْ أرفض زواج بدر مِن هايدي وفقط دون أنْ أخبره بالحقيقة

- وهل ستتحملين قضاء بقية عمرك بعيدة عنه؟ .. وأيضا هل ستتحملين أنْ تكسري قلب هايدي؟ .. وأيضا هل ستتحملين أنْ يتزوج بدر مِن ندى أو غيرها لتستحوذ زوجته الغالية على الثروة؟

- آه يا يعقوب .. أنا حائرة جدا

- احذري مِن أنْ تظلي هكذا .. غالبا تكون الحيرة الدائمة بداية السقوط

- أنا حقيقي لا أعرف ماذا أفعل

- هوني على نفسك يا معلمتي

- كيف؟

- كأنكِ لا تعلمين شيئا

- كيف؟

- هذا العالم الواسع .. هل تنكرين أنَّ فيه أخوة وأخوات تزوجوا وأنجبوا وماتوا دون أنْ يعلموا بحقيقة أنهم في الأصل إخوة وأخوات؟
- بالطبع هذا أمروارد يا يعقوب .. لكنني أعرف أنهما أخ وأخت
- اعتبري نفسك لا تعرفين
- أنتَ شيطانٌ يا يعقوب
- وأنتِ شيطانة يا معلمتي
- لكنى شيطانة تريد أنْ تتوب
- اعلمي يا معلمتي أنَّ التوبة تحرق الشيطان
- وماذا في ذلك؟ .. إنَّ هذا أمر مطلوب
- وهل سيصمت الشيطان بينما تحاولين حرقه؟
- ماذا قد يفعل؟
- الكثير يا معلمتي فاحذري .. واستمري فيما بدأتِه مِن سنين .. حان وقت قطف الثمار.. ويجب ألا ننشغل عنها أو نتأخر حتى لا تسقط الثمار إلى الأرض وتذبل تحت الأقدام
- يمكنني أنْ أحفظ نفسي وأولادي مِن ذلك يا يعقوب ، وليحدثْ ما يحدث
- في زمن السقوط الكل خاسر يا معلمتي

ومرَّ أسبوع ثم حدث شيءٌ جعل وعد تمضي في طريقها كما نصحها يعقوب ، بل جعلها تُعجِّل بمسألة الزواج ، ليس فقط بين ياسين وأحلام ، بل أيضا بين بدر وهايدي ، فقد دخل ياسين على وعد يوما بينما كانت جالسة مع هايدي يتحدثان عن بدروينتظران أنْ تزورهما المهندسة أحلام معه ..

جلس ثم قال :

- ماما .. هناك موضوع أريد أنْ أفاتحكِ به منذ فترة .. لكنني كنتُ مترددا
- تحدث يا ياسين .. أي موضوع هذا؟
- أحلام
- ما لها؟
- أعرف أنَّ الموضوع غريب ولكن .....

ابتسمتْ وعد ، فقد خمَّنتْ مع هايدي ما يدور بذهنه فقالت :

- أنتَ تريد أنْ تتزوج أحلام .. أنا أعرف

فتشجَّع ياسين وقال :

- إنها غنية جدا يا ماما .. جدا

وبدا على هايدي علامات الاستغراب والضيق في حين ضحكتْ وعد وسألته :

- هل تحبها؟
- طبعا أحبها وأحب ثروتها .. وإنْ كان شعوري بحبها أراه غريبا و.....

قاطعته وعد قائلة :

- هذا بسبب فارق السن .. الأهم لماذا بقيتَ كل هذه الفترة دون أنْ تخبرني بحبك لها؟
- كنتُ خائفا مِن رد فعلك
- ولماذا أخبرتني الآن؟ .. ألم تعد تخاف مِن رد فعلي؟

سكت ياسين لحظة كأنه يفكر ثم قال :

- ما جعلني أخبرك الآن هو خوفي مِن أنْ تضيع أحلام مِن يدي
- وما الذي يُضيّعها مِن يدك؟ .. ألا تحبك؟

- طبعا تحبني .. لكن تقدم لها مدحت أخو المرحوم زوجها معتصم .. يريد أنْ يتزوجها وكل العائلة توافقه وتضغط على أحلام .. كلهم طبعا طامعون فيها .....

وقاطعته وعد مسرعة تسأله باهتمام :

- كيف عرفتَ ذلك؟

- أحلام نفسها هي مَن أخبرتني

- وبم أخبرتكَ أيضا غير ذلك؟

فنظر لهايدي ثم قال :

- نرمين عمة بدر هي أيضا تريد أنْ تزوج ابنتها ندى لبدر.. وأيضا كل عائلتهم يريدون ذلك

فوقفتْ وعد غاضبة وقد شعرتْ بتوتر شديد وقالت :

- وبدر.. ما رأيه؟

- لا أعرف

فنظرتْ وعد لهايدي وسألتها :

- هل أخبركِ بدر بشيء مِن هذا؟

- لا يا ماما

وراحت وعد تذهب وتجيء أمامهما في الشقة ثم سألتْ ياسين :

- وما موقف أحلام مِن ذلك؟

فأسرع ياسين قائلا :

- الحقيقة أنَّ أحلام تشعر بضيق شديد أمام كل هذا الضغط مِن العائلة والمعارف

فأسرعتْ وعد تسأله :

- وما رأيها في النهاية؟ .. ماذا ستفعل؟

- طلبتْ مني أنْ نسارع بالزواج

فصاحت وعد :

- طبعا معها حق .. لا بد أنْ نسارع بالزواج

وطلبتْ وعد مِن ياسين الاتصال بأحلام .. أرادت أنْ تحدثها سريعا ، واتصل ياسين على الفور ثم أعطى الهاتف لوعد .. أخبرتها في التليفون في مودة ورفق أنَّ بدر خطب منها هايدي وقد وافقتْ ، وها هي تخطبها لياسين وستزورها غدا للاتفاق على إجراءات الزواج ، فوافقتها أحلام في كل شيء .

وأوقفتْ وعد سيارتها بجانب الفيلا .. نزلتْ منها ، وبالطبع لم تنسَ قبل الذهاب أنْ تتحول إلى شكلها الجديد بالعينين البنيتين والشعر الأسود ، وكان الاثنان ياسين وهايدي يسيران بجانبها ، وحدث أنْ رمقها السائق مسعود بنظراتٍ كارهة بينما كان ينظف السيارة ، وانتبهت وعد لنظراته ..

سألتْ ياسين :

- ما لهذا السائق مسعود ينظر لنا هكذا؟

قال ياسين يوافقها :

- إنه فعلا شخص غريب لا يتوقف عن النظر لي هكذا كلما رآني مع أحلام

- دعكَ منه فهو هكذا منذ كنتُ أعمل هنا منذ سنوات

وصعد الثلاثة سلالم الفيلا .. استقبلهم بدر وأحلام استقبالا جيدا بعد أنْ دخلوا مِن بوابتها الرئيسية الكبيرة .. جلس الجميع ، ثم دخلتْ خادمتان بأكواب وكؤوس العصائر وأطباق الحلوى .. نظرتْ لهما الغجرية وعد .. كانت إحداهما

كبيرة السن ، وكانت الأخرى شابة جميلة .. ابتسمتْ وعد ابتسامة لم يفهمها أحد وشردتْ بذاكرتها .. لقد سافرتْ بها خلال بضع ثوانٍ عبر أكثر مِن عشرين عاما إلى الوراء ، وعادت لتقرر أنْ تطرد الخادمة الشابة بمجرد أنْ تسكن الفيلا مع هايدي وبدر ، وإنها خائفة جدا مِن مثل ذلك ، فمن يدري؟ .. ربما تفعل هذه الخادمة الشابة ببدر ما فعلته هي بمعتصم شرف الدين ، وانتبهتْ على صوت أحلام تسألها :

- أين الدكتور مالك؟ .. لماذا لم يأتِ معكم؟

وأجابت وعد كاذبة بابتسامة قلقة :

- قد سافر لحضور مؤتمر طبي في لندن

- ربنا يوفقه

قالتها أحلام وهي تعيد النظر لوعد تكرارا ، فقد شعرتْ أنها تعرفها ، وإنها عندما رأتها المرة الوحيدة السابقة يوم العزاء لم تكن في وعيها الطبيعي بسبب صدمة فقد ابنتها وزوجها معا ، ولم ترَ يومها وجه وعد هكذا عن قربٍ كما تراه اليوم .. وهي الآن وإنْ كانت غير متزنة كما يجب إلا أنها شعرتْ شعورا طاغيا أنها تعرفها .. سألتها :

- أين رأيتكِ قبل ذلك يا مدام وعد؟

اضطربتْ وعد واهتزَّ كأسُ العصير بيدها ثم قالت :

- ربما في التليفزيون .. أجروا لقاء معي ذات يوم منذ فترة عن الصناعة

وتَعمَّد ياسين أنْ يغيِّر مجرى الحديث بسرعة ، فسأل أحلام عن توقيت الزفاف وإعدادات الزواج التي تريدها .. فالتفتتْ له وقالت في سعادة :

- الأمر لكم .. أنا موافقة على كل شيء

وقالت وعد :

- رأيي أنْ نعقد القران للجميع في يوم واحد في فندق تيوليب بالتجمع .. به قاعة احتفالات كبيرة وراقية جدا

قالت أحلام بابتسامة متفائلة :

- أنا موافقة

فقالت وعد :

- ما رأيكم أنْ يتمَّ كل ذلك يوم الخميس القادم؟

-

هزَّتْ أحلام رأسها بالموافقة ، فنظرتْ وعد لبدر وسألته :

- ما رأيك يا بدر؟

- موافق طبعا .. وسنعيش جميعنا هنا في الفيلا في البداية ثم ننتقل أنا وهايدي لفيلتنا في التجمع بعد تجهيزها كما تريد هايدي

فنظرتْ وعد لهايدي وابتسمتْ ثم قالت :

- طبعا هذا سيكون أفضل حتى تكونا قريبين مِني في الرحاب وأزوركما باستمرار

فأسرع بدر قائلا لوعد في أدب :

- ماما .. أينما نسكن فأنتِ والدكتور مالك ستكونان معنا

ونظرتْ له وعد بحنانٍ وشغف ، وسالت على عينيها الدموع ، فنظرتْ لها أحلام ، وقامت على الفور مِن مكانها بعلبة مناديل ورقية .. ناولتها منديلا ، ثم جلستْ بجوارها وربتتْ على كتفيها واحتضنتها قائلة :

- مِن اليوم أصبحنا جميعا عائلة واحدة

لكن .. لماذا بكتْ الشيطانة الغجرية؟ .. بالطبع بكتْ لأسبابٍ كثيرة .. بكتْ لأنها صارت تسمع كثيرا كلمة (ماما) مِن بدر ابنها .. وبكتْ لأنَّ ابنها حريصٌ على أنْ تسكن أمه معه ، ليس هي فقط ، بل ومعها زوجها وحبيبها قرة العين مالك الذي اشتاقت له كثيرا ، وبكتْ لأنها اطمأنتْ على مستقبل ابنتها الحبيبة هايدي ، وبكتْ لأنَّ ياسين بزواجه مِن أحلام قد أنهى أطماع مدحت ونرمين ، وبكتْ لأنَّ حُلْمَ الثراء يتحقق أمام عينيها ، وبكتْ لأنَّ النهاية التي أرادتها لكل معاناتها وصبرها قد بدأتْ ترتسم لها رائعة كاملة كما أرادتها ، وبكتْ لأنَّ الخميس القادم هو آخر عهدها بالشقاء ، وأول عهدها بالنعيم .

وانشغلتْ بقية الأسبوع ، فلم تذهب لرؤية مالك والاطمئنان عليه ، ولم تكن قد ذهبتْ لرؤيته قبل ذلك اليوم ببضعة أيام ، فاتصلتْ بيعقوب الأصفر لتطمئن منه عليه ولتخبره بآخر الأخبار ، فكان هاتفه مغلقا .. أعادت الاتصال كثيرا ، لكنه في كل مرة كان مغلقا ، فالتفتتْ لتجهيزات الزواج وهي في غاية القلق على مالك ، فكانت لا تترك نصف ساعة تمرُّ عليها دون اتصال .

وجاء صباح الخميس الموعود ، ولم تكن وعد قد توقفتْ طوال الليل عن معاودة الاتصال بيعقوب .. تغفو ثم تفيق فزعة فتسرع لتتصل بيعقوب فلا تجد إلا هاتفا مغلقا ، فتغفو ثم تصحو لتتصل ، وهكذا كانت حتى غلبها النوم قبل الفجر بساعة فلم تستيقظ منه إلا الثامنة .. فتحتْ عينيها ، فكان أول ما فعلته أنْ مدَّتْ يديها على هاتفها بجانبها فأعادت الاتصال به ، لكن هاتف يعقوب كان لا يزال مغلقا كالعادة .. ساورتها شكوكٌ كثيرة لا تبشر بخير ، كلُّها حول مالك ، وكلُّها مقلقة .

وأكملتْ استعداداتها في هذا اليوم الفاصل على مضضٍ حتى جاءت الساعة الثانية ظهرا دون أنْ تسمعَ صوتَ يعقوب ، فلم تتحمل الانتظار أكثر مِن ذلك .. أسرعتْ وارتدتْ ملابس الخروج دون تردد .. اتصلتْ بهايدي وهي في طريقها لسيارتها تخبرها أنها ستغيب لساعتين ، وكانت هايدي قد ذهبتْ للكوافير قبل ذلك بساعات بصحبة صديقاتها .. ردتْ هايدي تسألها :

- أين تذهبين في هذا اليوم يا ماما؟
- هما ساعتان فقط وسأعود سريعا
- لا تتأخري أرجوكِ يا ماما
- قلتُ سأعود سريعا
- لكن ماذا لو تأخرتِ؟
- اذهبا أنتما ومعكما أصدقاؤكما
- حسنا يا ماما .. لكن أرجوكِ لا تتأخري .. واعلمي أنَّ المأذون سيعقد القران الثامنة

وصرختْ فيها وعد :

- وما الذي سيؤخرني حتى الثامنة؟

وقادت وعد سيارتها ، وليس بذهنها غير مالك ، لا ترى غير صورته ، ولا تسمع غير صوته ، ولا تتمنى في لحظتها تلك غير لمسات يده الحانية ، وكانت تقود السيارة على سرعة زائدة مجنونة ، تنهب الطريق نهبا ، تريد أنْ تصل إليه وتطمئن عليه ثم تعود سريعا ، وما زالت تتصل بيعقوب تكرارا ، وما زال هاتفه مغلقا .

وصلتْ حتى سور الحديقة الدولية .. تمنَّتْ منذ وصلتْ لو ترى يعقوب فورا فيخبرها أنَّ هاتفه قد ضاع أو سُرِق أو تَلِف ، وأنَّ مالك هناك بخير ينام بجانب

السور أو يجلس بالمقهى يشرب شايا ، لكنها لم تجد يعقوب .. قررتْ أنْ تذهب وتسأل أحدا في المقهى .

أوقفتْ سيارتها جانبا ثم نزلتْ منها وتقدمتْ مباشرة ناحية صبي صغير يعمل في المقهى .. سألته :

- هل تعرف أين أجد مجنونا اسمه مالك يأتي كثيرا إلى هنا .....؟

قاطعها الصبي :

- هل تقصدين مالك المجنون الذي كان ينام بجوار سور الحديقة؟
- أجل هو
- مات

قالها الصبي هكذا بكل بساطة ، فابتسمتْ وعد ابتسامة جوفاء ، وأعادت :

- أنا أسأل عن مالك المجنون .....

قاطعها الصبي بنفس البساطة :

- أعرفه أعرفه .. وقلتُ لحضرتك إنه مات .. مات مقتولا

داربها المكان ، وتحجَّرتْ داخلها كلُّ الكلمات حتى أنها لم تستطع أنْ تفتح فمها لتسأل سؤالا آخر .. راح يتحدث لها الصبي ويحكي كيف وجدوه والسكين مغروسة في رقبته إلى آخره ، وقال كلاما كثيرا آخر ، لكنها لم تلتقط مِن كلامه غير القليل ، حتى أنها لم تنتبه للصبي وهو يخبرها بأنَّ رجال الشرطة أخذوا المجنون الآخر يعقوب واتهموه بقتله .. لقد صارت في عالم آخر.

ولم تخرجْ مِن حالتها تلك إلا لتجد نفسها في شقة الحي السادس لتغرق في حالة أخرى ، وكلاهما مؤلمتان مليئتان بالحسرة والأسى .. أسرعتْ إلى هناك لتبكي

البكاء الذي لم تبكه منذ وُلِدَتْ .. وكأنها أرادت أنْ تبكي وتغرق في الحزن دون أنْ يراها أحد ، ودون أنْ يربتَ على كتفيها أحد .. فمن كان يملك وحده اليد الحانية قد مات .. أرادت أنْ تعيش قليلا أو كثيرا مع أطياف مالك بالمكان .. لا يهم أي شيء آخر.

وفي دقائق كانت قد استعادت كل قصتها مع حبيبها مِن أولها إلى آخرها .. تمنَّتْ لو كان الزمن قد توقَّف عند آخر يوم عاشاه سويا قبل الذهاب لرؤية بيت مالك بالمقطم .. كم نقمتْ على حنان .. كم تمنَّتْ أنْ تراها .. أقسمتْ أنْ تقتلها ، ثم عادت وتخيلتْ مالك يأتي مِن ورائها ويمرر يديه الحانيتين على شعرها فتلتفت له فيساعدها على النهوض حتى يكونا وجها لوجه فيمسح دموعها باسما قائلا لها :

- حبيبتي لا تحزني .. أنا معكِ

قالت :

- أحقا أنتَ معي يا مالك؟

انتظرتْ أنْ يجيبها ، لكنها لم تسمع له صوتا فعادت تقول :

- أين أنتَ يا حبيبي .. كيف لمَنْ قتلكَ أنْ يقتلك؟! .. ألم ينظر إلى عينيكَ الوديعتيْن؟ .. ألم يشعر بطيبة قلبك؟ .. ألم يسمع صوتك الهادىء الرزين؟ .. مالك يا حبيبي أين أنتَ؟

فخُيِّل لها أنها سمعته يقول لها :

- أنا في الجنة .. تعالى لي يا وعد .. أنا أنتظركِ

قالت وعد :

- كيف آتيكَ إلى الجنة وأنا مُحمَّلة بكل الخطايا؟!

وخُيِّل لها كأنها سمعتْ مالك يقول :

- الله غفور رحيم يا وعد .. فقط توبي واستغفري ثم انهضي واستقيمي وتعالي إلى الجنة

قالت وعد :

- كيف يا حبيبي؟! .. إنَّ جروحي غائرة .. فكيف أنهض؟ .. كيف آتي؟

جاءها الصوت :

- فقط عليكِ الندم والتوبة وعلى الله مداواة الشروخ

مسحتْ دموعها بكل إصرار وقالت :

- أنا نادمة يا مالك .. أنا تائبة .. فادعُ ربك أنْ يغفر لي

سمعت صوتا مِن داخلها :

- ربي وربك ربٌّ غفور رحيم .. فقط هيا انهضي وأوقفي الخطايا

نهضتْ بكل العزم ، ونظرتْ لساعتها فكانت الخامسة .. تذكرتْ أنَّ عقد القران في الثامنة .. حمدتْ الله ، فما زال الوقت لديها لتلحق بالجميع وتُوقِفَ زواج الأم مِن ابنها ، وزواج الأخت مِن أخيها .

وهنا ..... سمعتْ صوتَ طرقٍ على الباب .. ظنَّتْ أنه كالصوتِ الوهمي الذي كانت تسمعه منذ قليل كأنه صوت حبيبها مالك ، وقد كان صوت ضميرها .

عاد الطرقُ .. خُيِّل لها أنه مالك .. لم يَطْرُق هذا الباب عليها أبدا أحدٌ غيره .. راحت تُمَنِّي نفسها قائلة بصوتٍ حالمٍ : (مالك حي .. ربما كان صبي المقهى كاذبا أو كان يقصد مالك آخر)

تقدمتْ نحو الباب وعلى فمها ابتسامة قلقة .. فتحته ، فأسرع الطارق بالدخول وهو يدفعها إلى الداخل .. أغلق خلفه الباب سريعا .. برقتْ عيناها وهي تنظر إليه قائلة في ذهولٍ وحزنٍ شديديْن :

- يعقوب !!
- نعم أنا

وشعرتْ منذ رأتْ وجهه أنه ينوي شرا بها .. سألته :

- كيف عرفتَ مكان الشقة؟
- كنتُ أراقبكِ
- ماذا تريد؟
- ألم تعرفي بعد؟
- ماذا أعرف؟
- أني أحبك
- ألهذا قتلتَ مالك؟

فضحك يعقوب قائلا :

- نعم قتلته .. فموته راحة له ولنا يا وعد

وشعرتْ بحقدٍ وغيظٍ لا حد لهما ، لكنها تمالكتْ نفسها وقالت :

- بهذه السهولة تقتل صديقك يا يعقوب؟!

اقترب منها وقال :

- مِن أجلك أفعل أي شيء في الدنيا يا وعد .. ألم تفهمي بعد؟

فبكتْ وعد وهي تقول :

- أتقتله وأنتَ أكثر مَن يعرف كم كنتُ أحبه؟

فصرخ فيها يقول :

- لماذا تحبينه؟ .. لماذا؟

قالت وعد :

- أحبه .. فقط أحبه

- ما فائدة مجنون كهذا لكِ؟

- أحبه

فقال يعقوب يذكرها بشيء :

- ألم تقولي لي يوما لو أنَّ مالك غير موجود فربما تحبينني؟

- أجل قلتُ ذلك .. لكن أتقتله يا يعقوب؟!

- مِن أجل أن أفوز بقلبكِ يا وعد أفعل أي شيء

- لكنكَ قتلتَ قلبي عندما قتلتَ مالك

- قتلته لتحبيني

- كيف أحبُّكَ وقد جعلتني بلا قلب؟!

فاقترب يعقوب منها قائلا وهي تتراجع ناحية الحائط :

- دعكِ مِن قلبك .. أريد الآن جسدك

فوقفتْ مستسلمةً وقالت له :

- هذا جسدي يا يعقوب .. تعالَ خُذْ منه ما تريد

فأقبل عليها يتحسسُ جسدها ويقبلها في رقبتها وهو يقول :

- انتظرتُ هذا اليوم كثيرا يا وعد

لم تَرُد ، إنما تظاهرتْ بأنها قد صارت تغرقُ معه في النشوة قائلة :

- وأنا أيضا يا يعقوب

أحسَّ بالزهو ، وأرختْ نفسها معه لتنسابَ جالسة على الأرض لتقتربَ مِن حقيبتها ، وهو يتبعها بالقبلات ، ثم تمددتْ تحته على الأرض تتظاهر بأنها تجاوبه ، فراحت تتحسسه بإحدى يديها في حين راحت بيدها الأخرى تحاول الوصول لحقيبتها على منضدةٍ صغيرةٍ ، فظلَّت تنقل جسدها وهو لا يزال يتبعها غائبا غارقا في النشوة ، وتعمَّدتْ أنْ تصرف انتباهه عن مقصدها ، فراحت تسأله :

- اتصلتُ بكَ كثيرا .. لماذا لم ترد على اتصالاتي؟
- كان مقبوضا علىَّ
- وكيف خرجتَ؟
- جعلتهم يظنون أني كنتُ مسجونا وقت القتل
- كيف؟
- المال يشتري كل شيء
- أنتَ شيطان يا يعقوب
- وأنتِ أجمل امرأة غجرية يا معلمتي

وكانت يدها قد وصلتْ إلى حقيبتها في نفس اللحظة التي بدأ ينزع ثيابها عنها ، فأخرجتْ مِن الحقيبة سكينا حادة تعودت أنْ تجعلها معها دائما .. راحت تثبتُ السكين في يدها مِن خلفه وتستعدُّ لضربه ، وبكلِّ ما استطاعت مِن قوة غرستْ السكين في رقبته وهي تردد :

- معلمتكَ تابتْ يا إبليس

ودفعته مِن فوقها في حين راح يعقوب يشير لها ذاهلا متألما دون كلام بنظراتٍ وغمغماتٍ غير مفهومة ، ثم برقتْ عيناه وفارق الحياة .

ونهضتْ واقفة تردد (بدر .. هايدى .. أحلام .. ياسين .. لا بد أنْ أوقف هذا الزواج) .. لكنها عادت فنظرتْ إلى جثة يعقوب .. ماذا تفعل بها؟ .. لا بد أنْ تنقلها مِن الشقة .. لكن كيف؟ .. إنه ضخمٌ ثقيل .

نزلتْ مسرعة واشترتْ كثيرا مِن الأدوات كمنشار وسكاكين وأكياس وحقائب ، وعادت مسرعة فأدارت موسيقى هادئة على هاتفها ، ثم راحت تبكي وتغني معا لمالك : (أنا بعشقكْ أنا .. أنا كُلّى لكْ أنا .....)

وبينما هي تغني كانت قد بدأتْ التقطيع إلى أشلاءٍ صغيرةٍ ، ثم وزَّعتها على حقائب كثيرة يسهل حملها .. أنزلتها إلى سيارتها على مراتٍ كثيرة .. فكَّرتْ في الصحراء المجاورة لمدينة الرحاب .. أرادت أنْ تدفنها هناك في أماكنَ متفرقة لتخفى الجريمة وتنعدم الشبهات .

ومنذ خرجتْ مِن الحي السادس بمدينة نصر كانت الساعة تقترب مِن الثامنة .. خشيتْ أنْ يُعْقَد القرانُ قبل وصولها .. اتصلتْ بهايدي فكان جرسا ولم ترد ، فاتصلتْ بياسين فكان جرسا ولم يرد .

أصابها القلق الشديد ، وقادتْ سيارتها بأقصى سرعة وصورة مالك معها كأنه يصحبها بالطريق ومعها أيضا يعقوب بسيارتها ، لكنه أشلاء .. تريد إخفاءها سريعا مع الماضي اللعين لها ثم الذهاب حيث عقد القران بقاعة احتفال فندق تيوليب بالتجمع الخامس .

وصلتْ إلى مكانٍ خالٍ وسط الصحراء قريبا مِن الرحاب ، وقد أظلمتْ الدنيا ، وصارت الرؤية شبه منعدمة .. أخرجتْ أشلاء يعقوب مِن سيارتها ، وألقتْ بها وهي

تلعنه في جرفٍ عميق .. انتهتْ منه ، لكنها ما أنْ استدارت لتعود إلى سيارتها حتى ظهر مِن ورائها شخصٌ لا يفصله عنها غير مد ذراع ، فأصابها رعب شديد وقالت :

- أنت؟!
- نعم أنا
- لماذا أنت هنا؟!
- فقط لأقتلك

وطعنها على الفور بسكين ، ثم ألقى بها في نفس الجرف العميق مع أشلاء يعقوب .. بعدها أمسك هاتفه واتصل قائلا في ثبات وثقة :

- تمَّت العملية يا مدام

وأخذ هذا الشخص حقيبتها ومفاتيح سيارتها ثم انصرف مسرعا وهو على يقين أنها قد ماتت .

وبعد ثلاثة أيام إذا بها تسترد وعيها على رائحةٍ كريهةٍ جدا صادرةٍ عن أشلاء يعقوب ، وإذا بها أيضا لا تقوى على النهوض بسبب طعنة السكين ، فاستمرتْ تصرخ وتصرخ مِن أسفل الجرف العميق ، وأتى مَن سمعها وأخرجها مِن الجرف إلى مستشفى بالتجمع الخامس ، وهناك عالج الأطباء جرح طعنتها وجرحا آخر برأسها نتج عن ارتطامها بحجر حين سقوطها ، ثم راحوا يسألونها عن اسمها ، فإذا بها تذكر لهم أنها لا تتذكر اسمها أو أي شيء آخر ، وأنها قد فقدتْ الذاكرة .

تمَّتْ بحمد الله ..